الفصل الأول

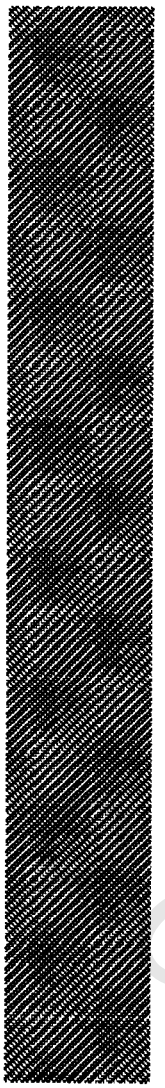

الطفولة وأهميتها

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الطفولة .. وأهميتها

مدخل

تعتبر الطفولة أولى مراحل الوجود الإنساني على الأرض، وإن كانت تسبقها مراحل أخرى في تكوين ذلك الكائن الحي (الإنسان) الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وكرمه، وعهد إليه بعمارة الأرض. ولو نظرنا إلى تلك المراحل واحدة واحدة لوجدناها مرتبة في آية من آيات القرآن الكريم، في سورة غافر، حيث نقرأ في الآية (٦٧) قول الله عز وجل:

﴿هوَ الَّذي خَلَقكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقريباً جدا من ذلك نقرأ في سورة الحج، الآية الخامسة، قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

ويحدثنا واحد من الكتاب عن طفولة بعض الأنبياء، والتي وردت في القرآن الكريم: «إن الإنسان سيظل في حاجة إلى أن يعيش مع النموذج الأمثل للطفل الصالح.. ولعله يجد ضالته الكبرى في دراسة طفولة الأنبياء والرسل.. حيث فيها الطفولة المباركة عند الله سبحانه وتعالى.. الطفولة المقدسة التي يرعاها الخالق سبحانه وتعالى. حيث هيأ الله لها كل أسباب النمو والحياة لتعمل بتبليغ رسالة الله تعالى.. ونشر دعوته الكريمة، وأداء الأمانة المباركة.. فهاكم قصة النبي الكريم يحيى - عليه السلام - إذ قال الله تعالى في حقه:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾. (مريم ٧ - ١٥)[1].

وفي قصة يوسف، عليه السلام، إشارة لطيفة للرعاية الإلهية بطفولة الأنبياء والرسل، حيث قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ (يوسف/ ٦).

---

(١) نجم الدين علي مرجان، لمحات تربوية ونفسية في طفولة الرسول، صلى الله عليه وسلم، رسالة الخليج العربي، العدد التاسع - السنة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٥٠٤.

وأما عيسى النبي، عليه السلام، الطفل المولود بنفحة ربانية، وبمعجزة إلهية، وهو المتكلم في المهد بإشارة من والدته السيدة مريم، عليها السلام، قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)﴾ (مريم/ ٢٩-٣٤).

وبطبيعة الحال نحن نعلم أن طفولة بعض الأنبياء التي ذكرت في القرآن تختلف جذريا عن الطفولة العادية للأطفال جميعاً، ولكنها تعطينا فكرة عن أهمية تلك المرحلة في حياة الرسل والأنبياء، وكيف أن الله سبحانه وتعالى حمَّلها بمهام خطيرة، لدرجة أنها ذكرت في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو تنزيل من حكيم حميد، والذي سوف يظل كذلك يتلى على البشرية حتى تقوم الساعة.

إن أطفال اليوم هم على وجه اليقين شباب الغد، وشباب الغد هم رجال المستقبل الذين سيتحملون أمانة ومسؤولية أوطانهم ومجتمعاتهم، وهم كما يقول عماد الدين إسماعيل «مرآة المجتمع؛ ففيهم يستطيع المجتمع، أي مجتمع، أن يرى كيف يمكن أن تكون عليه صورته مستقبلا»[1]. بينما يؤكد باحث آخر أن الأطفال ليسوا موضع اهتمام مجتمعهم فحسب، إنما أصبح

(١) محمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٤م، ص ٥

الاهتمام بهم الشغل الشاغل لجميع الهيئات على المستوى القومي. والمستوى الدولي[١].

والإسلام يعظم من شأن الطفولة ويطالب الإنسان المسلم بأن يهتم بالوعاء الذي سيخرج منه الطفل بادئ ذي بدء، فيقول رسولنا - صلى الله عليه وسلم: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس». وهذه النطفة هي التي ستتحول بعد ذلك بمشيئة الله وقدرته إلى الطفل، أو الأطفال الذين سيعمرون الكون، يقول التركي: «إن المسلم مطالب حين يفكر في الزواج أن يحسن اختيار الزوجة الصالحة، بوصفها عنصراً أساسيا لتكوين أسرته التي ستكون صلة له بعد وفاته، وبهذه الأسرة التي ينشئها يحمل جزءاً من مسؤوليته في عمارة الكون الذي يحيا فيه بتكثير سواد المسلمين، وإنشاء الأمة المكلفة بإقامة حكم الله في الأرض»[٢].

الاهتمام بالطفولة:

يعد الاهتمام بالطفولة، في حقيقة الأمر اهتماماً بالمجتمع كله وبمستقبله، خاصة إذا علمنا أن الأطفال يمثلون - في المتوسط - نحو ٤٠٪ من ذلك، باتساع العالم، وإن كان هناك من يهبط بهذه النسبة إلى أقل من ذلك قليلاً (٣٦٪ من عدد السكان، كما يقول فرح)[٣]، وهناك من يرتفع بها أكثر من ذلك قليلاً خاصة في العالم العربي، كما فعل أحمد عبد الحليم «إن موقع الطفولة في الهرم السكاني للوطن العربي يحتل قاعدة عريضة يبلغ

(١) محمد سعيد فرح، الطفولة والثقافة والمجتمع، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٥.

(٢) عبد الله المحسن التركي، توجيهات الإسلام في نطاق الأسرة، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٧.

(٣) محمد سعيد فرح، مرجع سابق، ص ٧.

تعدادها ٦٧ مليوناً تقريباً - وقت كتابة مقاله - وبنسبة تصل إلى ٤٥٪، وتشكل أعلى نسبة في العالم، ليس بالنسبة للعالم الثالث وحده، وإنما بالنسبة للعالم كله[١]. وعلى ذلك فنحن أمام نسبة كبيرة من أفراد المجتمع، تقترب من نصفه، ومن هنا فإن الاهتمام بأصحابها هو الوضع الطبيعي، والأمر المنطقي لأية أمة واعية تريد لمستقبلها أن يكون مضيئاً، ولمسيرتها أن تكون واعية وخالية من العثرات.

ولعل الأمر الذي سبق كان وراء اهتمام الأمم المتحدة بإصدار «ميثاق حقوق الطفل» من ٢٠ نوفمبر ١٩٥٩م مرسخة فيه المبادئ التي سبقت ضمنا في «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» ١٩٤٨م، وحين صدرت هذه الأمور - كما يقول حمدون - إنما صدرت عن اتجاه سائد في العصر الحديث، وعبرت عنه دول هذه المنظمة، كل في إطار ثقافتها[٢].

ويورد لنا فرح «بنود» الإعلان العالمي لحقوق الطفل والذي صدر عن هيئة الأمم المتحدة، متضمناً عشرة مبادئ يحسن إيرادها في هذا الجزء من البحث، فهي :

١- يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورة في هذا الإعلان ويمنح هذه الحقوق كل الأطفال دون أي استثناء أو تفرقة أو تمييز، بسبب الجنس أو اللون أو النوع أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو غيره، أو الأصل القومي أو الاجتماعي، أو الملكية، أو المولد، أو أية حالة أخرى له أو لأسرته.

٢- يتمتع الطفل بحماية خاصة، ويمنح عن طريق القانون، وغيره من الوسائل، الفرص والتسهيلات التي تتيح له أن ينمو جسميا وعقليا

(١) أحمد عبد الحليم، حقوق الطفل العربي، المستقبل العربي، العدد ٤٩ مارس ١٩٨٣م، ص٨٦.
(٢) الأدب والطفل، رسالة الخليج العرب، العدد ٢١، السنة السابعة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٨٩.

وخلقيا وروحيا واجتماعيا نموا صحيحا وسويا . . في ظل الحرية والكرامة .

ويراعى عند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض أن يكون لصالح الطفل أكبر الاعتبار .

٣- للطفل عند مولده الحق في اسم معين وجنسية معروفة .

٤- يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعي . وله الحق في أن ينمو ويشب في صحة جيدة، ويجب من أجل هذا أن يحاط هو وأمه برعاية وحماية خاصتين، بما في ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها . . وللطفل الحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسلية وخدمات طبية .

٥- يعطى الطفل المعوق جسميا أو عقليا أو اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعاً لحالته الخاصة .

٦- يحتاج الطفل من أجل نمو شخصيته نموا كاملاً متناسقاً إلى الفهم، ويجب كلما أمكن أن ينمو في رعاية وتحت مسؤولية أبويه، وعلى أية حال، في جو من العطف والأمن المعنوي والمادي، ولا يجوز - فيما عدا الحالات الاستثنائية - أن يفصل طفل صغير عن أمه . ومن واجب المجتمع والسلطات العامة أن يشمل بالرعاية الخاصة الأطفال الذين لا أسر لهم، والأطفال الذين لا يملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه أن تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمة لإعالة الأطفال في الأسر العديدة الأفراد .

٧- من حق الطفل أن يلقى تعليماً مجانيا وإجباريا على الأقل في المراحل الأولى، ويجب أن يعطى تعليماً يرقى بثقافته العامة، ويساعده على

أساس من الفرص المتكافئة وينمي قدراته ومداركه وإحساسه بالمسؤولية الأدبية والاجتماعية حتى يصبح عضواً نافعاً في المجتمع. ويجب أن يستهدف المسؤولون عن تعليم الطفل وإرشاده تحقيق أفضل مصالح الطفل، وتقع هذه المسؤولية بادئ ذي بدء على كاهل أبويه.

ويجب أن تتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب أن يوجها إلى نفس الأغراض التي يحققها التعليم، وعلى المجتمع والسلطات العامة أن تعمل جاهدة على تعزيز استمتاع الطفل بهذا الحق.

٨- يجب أن يكون الطفل - في جميع الظروف - أول من يتلقى الحماية المعنوية.

٩- يجب حماية الطفل من كل أشكال القسوة والإهمال والاستغلال، ولا يجوز أن يكون موضوعاً للمتاجرة بأي شكل من أشكالها، ولا يجوز السماح بتشغيله قبل أن يبلغ حدا أدنى من العمر، ولا يجوز بأية حال السماح له بأن يتولى عملاً أو وظيفة تضر بصحته أو بتعليمه، أو تعيق نموه الجسمي أو العقلي أو الخلقي.

١٠- يجب حماية الطفل من ممارسة الأعمال التي من شأنها أن تعزز التمييز العنصري أو الديني، أو سائر أنواع التمييز، ويجب أن يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس، والسلام والأخوة الشاملة، والإدراك الكامل بأن يكرس طاقته ومواهبه لخدمة أقرانه[1].

---

(١) محمد سعيد فرح، مرجع سابق، ص ص ٧-٩.